مراصد

كراسات علمية ٢٦

العنف بتأويل ديني.. الحالة المصرية

تأليف
دكتور كمال حبيب

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مراصد ٢٦

كراسات علمية محكمة تعنى برصد أهم الظواهر الاجتماعية الجديدة لا سيما في الاجتماع الديني العربي والإسلامي، تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية.

رئيس مجلس الإدارة
إسماعيل سراج الدين

المشرف العام
خالد عزب

سكرتارية التحرير
أمنية الجميل
محمد العربي

التدقيق اللغوي
فاطمة نبيه

التصميم الجرافيكي
محمد يسري

الآراء الواردة في «مراصد» تُعَبِّر عن رأي الكاتب فقط، ولا تعبر عن رأي مكتبة الإسكندرية.

العنف بتأويل ديني.. الحالة المصرية

تأليف
دكتور كمال حبيب

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء النشر (فان)

حبيب، كمال.

العنف بتأويل ديني: الحالة المصرية / كمال حبيب.- الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٤.

ص. سم. (مراصد ؛ ٢٦)

تدمك 978-977-452-300-7

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

١. الإسلام و السياسة. ٢. العنف. أ. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ب. العنوان. ج. السلسلة.

ديوي -320.55 2014747118

ISBN: 978-977-452-300-7

رقم الإيداع: 2014/20314

© 2016 مكتبة الإسكندرية.

الاستغلال غير التجاري

تم إنتاج المعلومات الواردة في هذه الكراسة؛ للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية؛ وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها «مصدر» تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية؛ وألا يُشار إلى أنه تمَّ بدعمٍ منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الكراسة، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية، وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الكراسة، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص. ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر. البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

المحتويات

مقدمة	٧
المبحث الأول: العنف بتأويل ديني مرادفًا للإرهاب.. تأسيس تعريفي	١١
المبحث الثاني: العنف بتأويل ديني.. المصادر المعرفية	١٧
المبحث الثالث: العنف بتأويل ديني.. المصادر الذاتية	٢٣
المبحث الرابع: العنف بتأويل ديني.. المصادر الداخلية	٢٧
المبحث الخامس: العنف بتأويل ديني.. المصادر الخارجية	٣٣
خاتمة	٤١

مقدمة

ظهرت جماعة «أنصار بيت المقدس»، و«جماعة أنصار الشريعة في أرض الكنانة»، و«جماعة كتائب الفرقان»، و«جماعة أجناد مصر»، وغيرها من الجماعات التي تتأول العنف مستخدمة الدين الإسلامي لتبرير عنفها. وهذه الجماعات تعرف بالسلفية الجهادية، أي أنها تستخدم التصورات السلفية والجهادية لتتكئ عليها في تأويل استخدامها للقتل والإرهاب ومنازعة الدولة مشروعية استخدام العنف وحدها دون غيرها من الجماعات التي تعيش بداخلها، أي أن هذه الجماعات تستخدم الدين الإسلامي لتأويل عنفها وإجرامها ولإشاعة حالة الفوضى والاضطراب والعمل على إسقاط الدولة والعودة إلى حالة البداءة الأولى لما قبل العقد الاجتماعي؛ وهي في ذلك تشبه بالقطع الخوارج القدامى في الخبرة الإسلامية، كما تشبه الجماعات الفوضوية في الخبرة الغربية.

تستخدم هذه الدراسة مصطلح «العنف بتأويل ديني»، بديلاً عن مصطلح الإرهاب بسبب دلالته المراوغة، وبسبب تفسيره من مواقع مختلفة حسب قوة وقدرة كلِّ فاعل اجتماعي وسياسي، ونعني في هذه الورقة بمصطلح العنف بتأويل ديني الذي يعني إرهابًا «الفعل الحركي الذي يصدر عن جماعات أو أفراد يتأولون نصوصًا وأحداثًا دينية إسلامية تؤسس لاستخدام العنف لتحقيق أهداف غير مشروعة داخل الدول الإسلامية أو خارجها».

نحن هنا نعتبر بشكل واضح أن استخدام العنف بتأويل ديني في مواجهة الدولة ومؤسساتها أو في مواجهة المدنيين داخل الدول الإسلامية هو عنف مرادف للإرهاب، كما نعتبر أن التوجه بالعنف ذي التأويل الديني للدول الأخرى غير المسلمة بعيدًا عن ساحات القتال المباشرة باستهداف المدنيين

في تلك الدول يدخل في معنى الإرهاب، ومن ثمَّ ما يعد مقاومة مشروعة هو مقاومة المعتدي المباشر على أرض الإسلام في ميدان القتال أو من في حكمه ممن يقومون بأعمال ذات طابع لوجستي بالمعنى الواسع والذي يدعم أعمال الحرب ويسهلها.

نحن هنا أيضًا نتحدث عن ظاهرة محددة، وهي استخدام العنف بتأويل ديني من قبل الأفراد أو الجماعات كفاعلين من غير الدول بقصد ترويع المدنيين واستهداف مؤسسات الدولة والمجتمع، ومنازعة الدولة وحدها حقها في استخدام العنف المشروع لإثارة الفوضى ونشر الاضطراب. ووفق تعريفنا فإن ظواهر مثل الغلو والتطرف والتعصب أو الهجرة والاعتزال أو المعارضة الدينية السلمية أو الاحتجاج الديني الذي يعبر عن مظالم اجتماعية وسياسية - لا تدخل ضمن تلك الظاهرة.

وقد قسمت الدراسة مصادر العنف بتأويل ديني إلى أربعة، كلٌّ منها مستقل عن الآخر في ذاته، بيد أنها جميعًا تتداخل في التأثير والمسارات والتحولات المرتبطة بتطور الظاهرة على المستوى الفردي أو الجماعي. اثنان من تلك المصادر يتصلان بإنتاج العنف الفردي بتأويل ديني؛ الأول: المصادر المعرفية الدينية والتاريخية التي يستند إليها الفاعل الفرد في تبنيه للعنف، والثاني: هو الذات الفاعلة نفسها وطبيعتها السيكولوجية والإدراكية وشعورها بالاغتراب والبحث عن هوية جديدة وطريقة فهمها للمصادر الدينية المنتجة للعنف، أي إن المصادر الموضوعية المعرفية متعلقة بوجود خارج الذات الفاعلة للعنف بتأويل ديني، بيد أن طبيعة الذات وقلقها واغترابها وميلها للتشدد وطبيعة إدراكها تتفاعل مع تلك المادة المجاوزة لها فيما يمكن أن نطلق عليه جدل الذات الفاعلة للعنف ومصادر العنف الفكرية والمعرفية.

والاثنان الآخران من تلك المصادر يتصلان بإنتاج العنف الجماعي؛ الثالث: المصادر الداخلية لسياسات الدولة المتصلة بالتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لها، والمصادر الداخلية للجماعات التي تتبنى العنف بتأويل ديني أيضًا. وقد أشرنا إلى تلك المصادر المتصلة بالسياسات الداخلية للدول؛ مثل التحول الحاد في السياسة الخارجية المصرية مثلاً نحو الكيان الصهيوني في

السبعينيات، أو عمليات اعتقال واسعة للمعارضين كما حدث بعد ٣ سبتمبر عام ١٩٨١م من قبل نظام الرئيس السادات، أو عمليات التعذيب المنهجة داخل السجون كما حدث في عصر عبد الناصر. ولأن المصادر الداخلية - كما أوضحنا - ليست متصلة بسياسات الدول وحدها؛ وإنما بسياسات الجماعات التي تتبنى العنف بتأويل ديني أيضًا، فهي تدخل ضمن المصادر الداخلية المنتجة للعنف بتأويل ديني؛ ومثال ذلك تأسيس «حسن البنا» التنظيم الخاصَّ في مطلع الأربعينيات. فقد بدأ ذلك التنظيم يستخدم العنف في مواجهة مسئولي الدولة كالقضاة حتى إنه قتل رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي في بهو وزارة الداخلية أواخر عام ١٩٤٨م؛ أو أن يقرر تنظيم التكفير والهجرة مثلاً قتل الشيخ الذهبي؛ لأنه كان يعارض أفكاره، ولأنه من وجهة نظر الجماعة ينتمي لمؤسسة كافرة هي الأزهر الشريف؛ أو أن تقرر الجماعة الإسلامية في مطلع التسعينيات الدخول في صراع مفتوح مع الدولة باستهداف السياحة والسياح الأجانب، وهو ما يمس عصبًا حساسًا متصلاً باقتصاد الدولة.

والمصدر الرابع المؤثر في ظاهرة العنف بتأويل ديني هو المصدر الخارجي المتصل بسياسات العالم والسياسة الدولية والقوى العالمية في تعاطيها لتلك الظاهرة، وسياسات تنظيمات العنف المتعولمة والمجاوزة للحدود الداخلية للدول في مواجهة العالم أو من تعتبرهم أعداء لها. ويندرج تحت هذا المصدر ما أشرنا إليه من السياسات الغربية والأمريكية في النظر إلى الإسلام باعتباره عدوًّا بديلاً عن الاتحاد السوفيتي الذي سقط في نهاية التسعينيات، أو تبني الولايات المتحدة لاستراتيجية صراع الحضارات التي وضعها «صموئيل هنتنجتون»، أو أن يقرر تنظيم القاعدة أن العدو البعيد أخطر من العدو القريب، ويبدأ في استهداف المصالح الأمريكية بعد عام ١٩٩٨م الذي أعلن فيه تأسيس الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين، أو أن يستهدف تنظيم القاعدة في ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م برجي مركز التجارة العالميين ووزارة الدفاع الأمريكية في نيويورك بالهجوم بطائرات نقل مدنية، أو أن تعلن الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على الإرهاب وتضرب أفغانستان وتسعى لاحتلالها بعد أحداث سبتمبر وتسقط حكومة طالبان، أو أن تحتل العراق عام ٢٠٠٣م، أو أن تدع أمريكا المجموعات الجهادية تنشط في سوريا بعد عسكرة ثورتها أواخر عام ٢٠١١م. وهو ما وفر لها ملاذًا آمنًا مكَّنها فيما

بعد من تأسيس تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام المعروف بتنظيم «داعش»؛ ويعلن ذلك التنظيم الخلافة مع سقوط مدينة الموصل في العراق عام ٢٠١٤م، ويصبح ذلك التنظيم منذ ذلك الوقت أكبر تحدٍّ أمني للعالم كله شرقًا وغربًا.

تعالج الدراسة موضوع العنف بتأويل ديني في مصر في خمسة مباحث هي:

المبحث الأول: العنف بتأويل ديني مرادفًا للإرهاب.. تأسيس تعريفي.

المبحث الثاني: العنف بتأويل ديني.. المصادر المعرفية.

المبحث الثالث: العنف بتأويل ديني.. المصادر الذاتية.

المبحث الرابع: العنف بتأويل ديني.. المصادر الداخلية.

المبحث الخامس: العنف بتأويل ديني.. المصادر الخارجية.

وتمثل الدراسة جهدًا علميًّا صعبًا لمحاولة فهم ظاهرة العنف بتأويل ديني، وتعريف تلك الظاهرة المرتبكة والمربكة. هذا جهد علمي أولي، وهو مفتوح على آراء أخرى لاستكمال محاولة تعريف تلك الظاهرة الجديدة وفهمها والنفاذ إلى جوهرها، والتي تعد تحديًا كبيرًا للدولة المصرية بعد ثورة ٢٥ يناير وموجتها التالية ٣٠ يونية.

القاهرة ، ١٦يوليو ٢٠١٤م

المبحث الأول

العنف بتأويل ديني مرادفًا للإرهاب.. تأسيس تعريفي

موضوع البحث الذي بأيدينا من الموضوعات الحساسة. فمصطلح الإرهاب من المصطلحات النزاعية والخلافية التي تعرفها كل حضارة بطريقتها. فمن هو إرهابي لدى أمة من الأمم قد يكون بطلاً لدى أمة أخرى؛ ففدائيو واستشهاديو حركات المقاومة تنظر أممهم إليهم على أنهم مناضلون أبطال، في حين ينظر المحتلون إليهم باعتبارهم أعداء. ويعرف الأقوياء الإرهاب بالطريقة التي تخدم مصالحهم في مواجهة الخصوم؛ فالولايات المتحدة وصفت خصومها في فترة الحرب الباردة بالإرهابيين الذين يهددون الحضارة الغربية، وفي مواجهة الضعفاء عندما تولت إدارة بوش مقاليد الحكم شرعت في مراجعة سياسة الأمن القومي فيما يخص العالم الثالث وخلصت إلى أنه في الحالات التي تواجه فيها الولايات المتحدة أعداء ضعفاء جدًّا فإن التحدي الذي يواجهنا لن يكون إلحاق الهزيمة بهم فقط، بل هزيمتهم بشكل حاسم وسريع، وتشير بعض المصادر إلى ما تطلق عليه «إرهاب الأباطرة» و«إرهاب القراصنة» أي الإرهاب الذي تقوم به الدول الكبرى القوية والإرهاب الذي يرد به الضعفاء[1]. فنحن أمام مصطلح مراوغ[2]، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، التي كادت أن تجعل من الإسلام مرادفًا للإرهاب، لذا نفضل استخدام مصطلح التأويل الديني للعنف أو العنف المستند إلى تأويل ديني.

---

(١) نعوم تشومسكي، إرهاب القراصنة وإرهاب الأباطرة قديمًا وحديثًا، ترجمة أحمد عبد الوهاب (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥م)

(٢) يمكن مراجعة دراسة قيمة بعنوان «الإرهاب قانونًا»، أصدرتها الهيئة العراقية للاستشارات والبحوث، انظر: «الإرهاب قانونًا»، دار بابل للدراسات والإعلام، www.darbabl.net/word/alerhab%20qanoon.doc.

التعريفات التأسيسية

١- حالة مصر باعتبار أن مصر لها خصوصية تختلف فيها عن غيرها من البلدان والأمم فيما يتعلق بعلاقتها بتمثلات العنف بتأويل ديني، من بين تلك الخصوصيات المصرية مثلاً أنها الدولة التي عرفت تأسيس عدد من التيارات الفكرية في بواكير القرن الماضي كنوع من رد الفعل المعبر عن الهوية الوطنية بعد الاحتلال البريطاني لمصر، ومن تلك التيارات تيار الجامعة الإسلامية الذي عبر عنه جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا[١]. وتأسست الجمعية الشرعية التي وضع بنيانها ولبنتها الشيخ الأزهري محمود خطاب السبكي عام ١٩١٢م، وبعد إعلان سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م تأسست جمعية أنصار السنة المحمدية عام ١٩٢٦م ووضع لبنتها العالم الأزهري محمد حامد الفقي، ثم تأسست جمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٧م، وكان أبرز مؤسسيها محب الدين الخطيب ومحمد الخضر حسين والشيخ عبد العزيز جاويش[٢]، ثم تأسست جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨م، وفي مصر تأسس التنظيم الخاص في مطلع الأربعينيات[٣]، والذي فتح أبواب استخدام العنف داخل حركة الإخوان المسلمين، وظهر سيد قطب وأفكاره بتحولاتها منذ مطلع الستينيات وأسس تنظيم ١٩٦٥م[٤]؛ كما تأسس تنظيم

(١) عن التيار الفكري الذي يمثله جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، وهو الذي يعرف بتيار الجامعة الإسلامية، بشكل أساسي، انظر: ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨م-١٩٣٩م، ترجمة كريم عزقول (بيروت: دار النهار، ١٩٦٨م). وعن كونه تيارًا توفيقيًّا يجمع بين السلفية والعصر، انظر: محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي: ١٩٣٠م-١٩٧٠م، كتاب عالم المعرفة ٣٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٠م). وعن التيارات الأدبية والإصلاحية والفكرية التي ظهرت فيما بعد الاحتلال البريطاني لمصر، انظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ط. ٧، مج. ١، من الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م).

(٢) عن تفاصيل نشأة وأفكار وانتشار جمعية الشبان المسلمين، انظر: ج. كامبفماير، «مصر وآسيا الغربية»، في وجهة الإسلام: نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي، تأليف هـ.أ. ر. جيب وآخرين، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، تقديم مصطفى لبيب (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩م): ٦٨ وما بعدها. ويعتقد كاتب هذه السطور أن كثيرًا مما وضعه البنا لجماعة الإخوان المسلمين استقاه من اقترابه من تجربة تأسيس جمعية الشبان المسلمين.

(٣) عن الإخوان المسلمين بالطبع هناك مراجع كثيرة، انظر: ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، ترجمة عبد السلام رضوان، ط. ٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٥م). وعن التنظيم الخاص، انظر: أحمد عادل كمال، النقط فوق الحروف: الإخوان المسلمون والنظام الخاص (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٩م).

(٤) عن سيد قطب، انظر: شريف يونس، سيد قطب والأصولية الإسلامية (القاهرة: دار طيبة، ١٩٩٥م). ومن منظور إسلامي، انظر: أحمد عبد المجيد، الإخوان وعبد الناصر: القصة الكاملة لتنظيم ١٩٦٥م (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩١م).

الجهاد منذ حركة الفنية العسكرية التي قادها صالح سرية عام ١٩٧٤م، وهي أول حركة انقلابية منظمة تحاول السيطرة على الحكم من أجل إقامة الدولة الإسلامية[١]. واستطاع تنظيم الجهاد والجماعة الإسلامية عام ١٩٨١م أن يقتلوا رئيس الجمهورية يوم العرض العسكري وسط جنود الجيش المصري في ذكرى نصر أكتوبر[٢]. وفي الثمانينيات غادر أعضاء تنظيم الجهاد والجماعة الإسلامية إلى أفغانستان وهو ما قاد إلى ما عرف بعولمة الحركة الجهادية واكتمال تأسيس تنظيم القاعدة عام ١٩٩٨م[٣]. وفي سيناء ظهر تنظيم التوحيد والجهاد الذي نفذ عملية طابا في أكتوبر عام ٢٠٠٤م، ثم عملية شرم الشيخ يوليو ٢٠٠٥م[٤]، وعملية رفح ٢٠٠٦م، فضلًا عن عمليات العنف العشوائي ذات الطابع العائلي وكلها ظواهر جديدة، تجعلنا نذهب إلى أن الحالة المصرية من الناحية التاريخية ومن الناحية الرمزية ومن ناحية الرموز والقادة ومن ناحية الأفكار والظواهر المتصلة بما نطلق عليه «العنف بتأويل ديني» - تعبر عن تطور ومسار خاص؛ ومن ثم فإن الحالة المصرية باعتبارها حالة رئيسية أو مركزية هي التي تمثل المختبر التاريخي الذي نتحقق فيه من معرفة معنى الفعل العنيف المستند إلى تأويل ديني.

٢- معنى الإرهاب

أ- بعيدًا عن الجدل حول تعريف الإرهاب، الذي هو مصطلح مراوغ بلا ريب يفسره كُلُّ طرف حسب موقعه وقوته السياسية كما أشرنا في مطلع البحث[٥]، فإننا سوف نستخدم

(١) عن حركة الفنية وأفكارها، انظر: كمال السعيد حبيب، «العلاقة بين الإخوان والجماعات الإسلامية الأخرى»، في أزمة الإخوان المسلمين، تحرير عمرو الشوبكي (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٩م).

(٢) عن تنظيم الجهاد، انظر: كمال السعيد حبيب، «جماعة الجهاد المسار والأفكار»، في جماعة الجهاد في مصر، مركز المسبار للدراسات والبحوث ٢٥ (دبي: مركز المسبار للدراسات والبحوث، ٢٠٠٩م).

(٣) عن عولمة الحركة الإسلامية يمكن مراجعة: جهاد عودة، عولمة الحركة الإسلامية الراديكالية، مكتبة الأسرة. سلسلة الفكر ([القاهرة]: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م).

(٤) عن العمليتين، انظر: كمال حبيب، تحولات الحركة الإسلامية والاستراتيجية الأمريكية (القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٦م).

(٥) عن مفهوم الإرهاب من وجهة نظر فقهية، انظر: يوسف القرضاوي، فقه الجهاد: دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، مج. ٢ (د.م.: مكتبة وهبة، ٢٠٠٩م): ١٠٧١ وما بعدها. حيث يعقد فصلاً بعنوان الجهاد والإرهاب، ويشير إلى مراوغة المصطلح الذي يجري استخدامه اليوم ويرى أنه الترويع. وتحدث عن الإرهاب المدني وإرهاب الاستعمار وإرهاب الدولة والإرهاب الدولي واعتبره حكم القوي على الضعيف، والإرهاب

مصطلح «العنف بتأويل ديني» كمرادف لمصطلح الإرهاب، ويعني العنف بتأويل ديني «الفعل الحركي الذي يصدر عن جماعات أو أفراد يتأولون نصوصًا وأحداثًا دينية إسلامية تؤسس لاستخدام العنف لتحقيق أهداف غير مشروعة داخل الدول الإسلامية أو خارجها».

ب- التعريف يستبعد ظواهر أخرى تقترب من ظاهرة العنف بتأويل ديني كفعل حركي منظم، مثل ظاهرة الغلو أو ظاهرة التطرف أو ظاهرة التعصب أو ظاهرة الاعتزال أو الهجرة أو المعارضة الدينية أو الاحتجاج الديني وغيرها من الظواهر المرتبطة بالتأويل الديني، والتي تتخذ شكلاً فكريًّا أو انسحابيًّا أو احتجاجيًّا.

ت- يستبعد التعريف الفعل الحركي السلمي المستند إلى قوة الجماهير أو إلى المؤسسات السياسية أو العسكرية ضد الظلم الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي في مواجهة السلطة غير الملتزمة بالقانون والدستور؛ فذلك لا يعتبر عملاً غير مشروع[1]. ومن هنا كان استخدامنا لمصطلح «الخروج السياسي»، أي الخروج استنادًا إلى النضال السياسي السلمي بعيدًا عن اللجوء إلى العنف المباشر الفردي أو الجماعي. فخبرة العنف الفردي والجماعي المستندة لتأويل ديني أثبتت أنه يحمل داخله بذور فنائه خاصة لو كان مستخدمًا في الداخل ضد المجتمع أو السلطة التي يناضل الفاعل الاجتماعي من أجل تغييرها[2].

ث- يستبعد التعريف أيضًا استخدام القوة، التي تتضمن بالضرورة عنفًا لرد الاعتداء على أرض المسلمين المحتلة كما هو الحال بالنسبة للعراق وأفغانستان وفلسطين؛ فهذا من باب الجهاد المشروع ولا يعد عملاً إرهابيًّا، ويعد محاربًا مقصودًا بالقتال كل الجنود المحاربين في

السياسي، وهو يقترب جدًّا من تعريفنا له في هذا البحث. وقسمه لإرهاب مشروع وهو المقاومة الوطنية للمحتلين كمقاومة الفلسطينيين، وإرهاب غير مشروع كالإرهاب الصهيوني في فلسطين أو إرهاب عصابات الجريمة؛ والإرهاب غير المشروع وهو الذي يكون هدفه مشروعًا لكن وسيلته غير مشروعة كخطف الطائرات بركابها المدنيين، وخطف الرهائن وقتل السياح، فالوسيلة غير مشروعة.

(١) المرجع السابق: ١٠٤٩-١٠٥١. حيث يرى القرضاوي أن القوة التي يمكنها التغيير في عصرنا هي الجماهير والقوة العسكرية والمؤسسات السياسية.

(٢) كمال السعيد حبيب، الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢م).

ساحة القتال ومن في حكمهم ممن يقومون بأعمال ذات طابع لوجستي بالمعنى الواسع، الذي يدعم أعمال الحرب ويسهلها، أما المدنيون مواطنو تلك الدول، فإنهم لا يقصدون بقتال أو عنف، سواء أكانوا داخل دولهم وفي بلادهم أم جاءوا إلى بلاد المسلمين للتجارة أو الزيارة أو السياحة، ودخلوا مستأمنين بجوازات سفر من حكومات تلك البلدان المسلمة.

ج- الدين الإسلامي - بعيدًا عن تأويلات تلك المجموعات والجماعات والأفراد - لا يدعو إلى استخدام العنف غير المشروع لتحقيق أي من أهدافه ومقاصده، كما أنه لا يدعو إلى إثارة الرعب والفزع بين المدنيين حتى لو كانوا غير مسلمين. فالأصل الإسلامي في أنفس البشر هو العصمة، والأصل في الدماء البشرية عامة هو الحرمة[1].

ح- نحن نعتبر الفعل العنيف - وفق تعريفنا هنا - قصدَ استخدام العنف بتأويل ديني من قبل جماعات أو أفراد يتخذون من الدين الإسلامي مرجعية لهم، ولكنهم يتأولون نصوصه لتبرير ممارساتهم العنفية ضد السلطات الحاكمة بدعاوي إقامة الدولة الإسلامية أو استعادة الخلافة أو الانتقام من بعض ممارسات السلطات العلمانية أو مناصريها في الدول الإسلامية؛ كالرد على التعذيب أو انتهاك الحرمات وغيرها، أو الثأر لما يجري للمسلمين في البلدان غير المسلمة، أو الرد على جيوش المحتلين الصليبيين لبلدان العالم الإسلامي باستهدافهم داخل بلدانهم أو استهداف المخالفين في المذهب أو العقيدة من المدنيين... إلخ.

(١) المرجع السابق: ١٠٣٨. فالناس لا يقاتلون بسبب كفرهم؛ وإنما بسبب عدوانهم.

المبحث الثاني

العنف بتأويل ديني.. المصادر المعرفية

ونقصد بالمصادر المعرفية للعنف بتأويل ديني تلك النصوص والأحداث التي تم تأويلها لتبرر الفعل العنيف لمن يقوم باللجوء إليه، فلدى من يستخدم العنف ذخيرة كاملة من التراث النصي والحركي التاريخي والمعاصر يسعى لإعادة قراءتها من منظور جديد وحداثي يبرر العنف واستخدامه. وهذه المصادر المعرفية هي:

١ – الحكم لله (الحاكمية)

وتعني أن الحاكمية يجب أن تكون لله سبحانه وتعالى، ويستندون في ذلك لقوله تعالى«وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ » و«ٱلْفَٰسِقُونَ » و«ٱلظَّٰلِمُونَ»، ويستدلون بقوله تعالى «إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ»، ومبدأ الحاكمية في ذاته صحيح بمعنى أن تكون المرجعية العليا للتشريع مستندة إلى الكتاب والسنة الصحيحة وأقوال الفقهاء المعتبرة واجتهاداتهم المعاصرة، بيد أن بعض الذين يذهبون إلى رفع شعار الحاكمية ينفون حكم البشر تمامًا، والشعار رفع في الأصل في وجه علي بن أبي طالب من جانب الخوارج[١].

(١) عمر عبد الله كامل، المتطرفون خوارج العصر، تقديم يوسف القرضاوي (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٨م).

٢- التكفير

ويعني الحكم على أصناف عديدة من المسلمين بأنهم كفار كفرًا أكبر يخرجهم من الملة ويصبحون في حكم المرتدين. ويأتي على رأس هؤلاء الحكام ومن في حكمهم القضاة والمشرعون في المجالس النيابية ومسئولو الهيئات التنفيذية كرئيس الوزراء والوزراء ومسئولو التنفيذ في الجهات العدلية والقانونية والدفاعية خاصة الشرطة والجيش. وتتسع دائرة الحكم بالتكفير على العاملين في تلك المؤسسات المختلفة. ولا يخلو الحكم بالكفر أيضًا على فئات أخرى من المسلمين منهم مسئولو الجهات التي تقوم على التعليم، والعاملون فيه باعتبار أن مناهج التعليم لا تلتزم بالإسلام وكذلك العاملون فيها. بل يتسع الأمر ليشمل الناس والجماهير والعامة الذين يلجأون إلى مؤسسات الدولة المختلفة لقضاء حوائجهم ومصالحهم التي لا تقوم حياتهم إلا بها، فمن يلجأ إلى المحكمة أو المؤسسات التشريعية أو التنفيذية يدخل في معنى الكفر[١].

٣- تغير أحكام الديار

اعتبار الدار التي تعلوها أحكام الكفر ويحكم بها قوم من الكفار ويقوم على التشريع وإدارة النظام فيها قوم من المرتدين، اعتبار هذه الدار دار كفر وردة، ومن ثم تجري عليها أحكام ديار الكفر والردة. هنا لم يعد الحكم بالكفر على النظام السياسي أو مؤسساته أو شخوصه؛ وإنما الحكم اتخذ طابعًا رمزيًّا ليشمل الدولة ذاتها أو الوطن أو ما يطلق عليه بالدار[٢]. ويترتب على التكفير وتغير حكم الدار مجموعة من النتائج الخطيرة أهمها:

---

(١) كمال حبيب، وعبد القادر بن عبد العزيز، «قراءة في فكر أحد قادة التيار الجهادي»، في دليل الحركات الإسلامية في العالم، تحرير ضياء رشوان، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية ١ (د.م.: مؤسسة الأهرام. مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٦م): ٣٤٤. نقلاً عن الجامع في طلب العلم الشريف؛ حيث عدد الطوائف والفئات الكافرة مثل الحكام والقضاة وأعضاء الهيئات التشريعية والناخبين والجنود، ورتب على ذلك بطلان العديد من معاملات تلك الفئات كبطلان الصلاة والولاية وفساد زواجه ... إلخ.

(٢) المرجع السابق: ٣٤٥. حيث يقول عبد القادر بن عبد العزيز في كتابه الجامع في طلب العلم الشريف: إن ديار المسلمين اليوم هي ديار كفر لغلبة الأحكام والقوانين الوضعية عليها. وفي الرد على مسألة الديار وأبعادها الفقهية، انظر: القرضاوي، فقه الجهاد: ٨٧٩ وما بعدها.

أ- الاستحلال

ويعني الاستحلال أن يصبح هؤلاء البشر الذين صدر الحكم عليهم بالتكفير والردة في معنى المرتدين عن الإسلام، والمرتد عن الإسلام هو أخطر من المرتد الأصلي وهو أخطر من الكافر الأصلي أيضًا. ومن ثم فإن دماءهم وأموالهم وأعراضهم تصبح مستباحة باعتبار ردتهم عن الإسلام(١).

ب- التحريم

ويعني حرمة الاشتراك في مؤسسات الدولة تلك بمعنى أن لا يعمل المسلم في هذه المؤسسات المرتدة، ولا يعلم أبناءه وبناته في مدارسها، ولا يشارك في جيشها أو العمل في المؤسسات العدلية والشرطية فيها(٢).

ت- العزلة

ويعني اعتزال الناس في المجتمع على المستوى الشعوري أولاً؛ بمعنى أنك تعيش بينهم، ولكنك تسلك طريقة ومنهجًا مختلفًا عنهم في التصورات والأفكار والمشاعر والمعتقدات، ثم العزلة الحركية بمعنى أنك تسعى لامتلاك الأدوات التي تمكنك من المفارقة الجسدية بالبحث عن عالم مختلف، أو تسعى لامتلاك الأدوات المادية لتغيير الواقع القائم(٣).

---

(١) يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف (د.م.: مؤسسة الرسالة؛ دار الفرقان، ٢٠٠٠م)، كتاب إلكتروني متاح مجانًا عبر الإنترنت، http://www.creativity.ps/34E2C02B-13E7-492A-A4ED-2E540E954E59FE/FinalDownload/DownloadId-6C1E7ECF6C36658F32000ACB4581BD9/34E2C02B-13E7-492A-A4ED-2E540E954E59/library/datanew/cre5/228.pdf.

وجماعة التكفير كانت تستحل أموال المسلمين وأعراضهم باعتبارهم مرتدين.

(٢) كانت جماعة السماوي تحرم العمل في مؤسسات الدولة، لكنه عاد عن ذلك وراجعه.

(٣) العزلة الشعورية هي أحد المصطلحات القطبية؛ وهي عزلة بالشعور. وهناك عديد من الشباب الإسلامي اعتزل المدينة والأهل فعلًا وعاش حياة أقرب لحياة الإنسان الأول.

ث- القتال

بمعنى أن هذه الفئة المرتدة أو الممتنعة عن الحكم بشريعة الإسلام يجب قتالها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. فأيما طائفة امتنعت عن شريعة من شرائع الإسلام فمن الواجب قتالها؛ ومعنى القتال هنا أوسع من مجرد القتل؛ فهو فعل حركي يعتمد على الحشد والتجييش الواسع(١).

ج- الولاء والبراء

بمعنى أن ولاء المسلم للدولة التي تحكم بالشريعة ويتحاكم أهلها إلى حكم الله ورسوله « وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ »، وهو يعلن براءته من الدولة والدار التي لا تعلن تحاكمها إلى الشريعة والإسلام «وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ». فللمسلم ولاء للمسلمين «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ»، وله براء من الكفار والمشركين «أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ». وهنا يصبح الشعور بالانتماء والولاء لجماعة مختلفة عن تلك القائمة الآن، إنها جماعة المسلمين لا جماعة الكفار والمشركين(٢).

ح- مفهوم الجماعة

يضيق مفهوم الجماعة أو الأمة أو العالم الذي يشعر به ما يمكن أن نطلق عليه «الإنسان الجديد»، أو «الإنسان مكتشف الحق» أو «الإنسان المثالي» أو «الإنسان الذي يحمل للعالم عبء الهداية». فلم تعد الجماعة هي تلك المعنى الشائع أو الواسع الذي يدخل فيه كلُّ من نطق بالشهادتين، بل الجماعة هي تلك التي تحقق معنى الفهم الجديد للدين(٣).

---

(١) أسست الجماعة الإسلامية وتنظيم الجهاد فكرهما على مفهوم الطائفة الممتنعة، وقد استقوها من ابن تيمية في كتابه الكبير مجموع الفتاوي، وراجع مثلاً الفريضة الغائبة لمحمد عبد السلام فرج، وميثاق العمل الإسلامي من إصدارات الجماعة الإسلامية قبل المراجعات.

(٢) يتحدد موقف الإنسان من المجتمع والناس والدولة والعالم من خلال مفهوم الولاء والبراء، والذي يؤسس مواقف تقوم على المفاصلة والمقاطعة، وربما التكفير والقتال.

(٣) تحقيق معنى الولاء والبراء أي مفهوم الانتماء بالتعبير السياسي لا يكون إلا بالانضمام لجماعة تحمل معنى الحق الجديد الذي تم اكتشافه، وهنا

خ- مفهوم الإسلام

بمعنى أن الإسلام لم يعد ذلك الدين الذي يدخل فيه الإنسان بمجرد أن يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، بل هو ذلك الدين الذي يشترط شروطًا أهمها الإيمان بفهم تلك الجماعة للإسلام فيدخل العمل بمعناه الواسع في مصطلح الإيمان أو في معنى الشهادة بالإسلام، أو يدخل معنى تحقيق التوحيد كاملاً في معنى الإسلام، ولذا فهناك إعادة لتعريف الأسماء من جديد(١).

د- مفهوم العلم

بمعنى التأسيس لنظرية معرفة جديدة مختلفة عن تلك التي أسسها فقهاء الإسلام. وتقوم تلك النظرية بالأساس على القدرة المتجاوزة لجماعة الحق الجديدة وقادتها للتواصل مع النص مباشرة دون حاجة إلى أقوال الفقهاء والعلماء، أو إعادة النظر في تلك الأقوال والاستدراك عليها. فهناك قراءة جديدة لا يمكن أن نصفها بأنها ذات طابع إحيائي؛ لأنها في مواجهة الجماعة والأمة المسلمة وليس من أجلها(٢).

ذ- مفهوم العالم

ويعني أن عالم غير المسلمين هو الآخر عالم مليء بالتمرد على الله، والديار هناك ديار كفر ومن ثم فإنها مقصودة بالحرب والقتال بمن في ذلك أهلها من المدنيين. وهم لا يستخدمون مصطلح مدني؛ وإنما مصطلح كافر. فالعالم ينقسم إلى دار كفر ودار إسلام؛

جرى تعريف الجماعة عند جماعة التكفير بأنها الجماعة التي تؤمن بالإسلام كما عرفه شكري مصطفى. ومفهوم الإسلام يعني بالإضافة للشهادة معاني أخرى كالكفر بالطاغوت والعمل بمقتضى الشهادة، ومنها بيعة الإمام. فالجماعة هنا هي جماعة المسلمين وما عداهم كفار.

(١) قضية الأسماء ودلالتها على المعاني شغلت شكري مصطفى كثيرًا، وشغلت الخوارج من قبل، وشغلت علماء الكلام والفرق والمذاهب الإسلامية، بيد أن تعريف الجماعات الجديدة يتجاوز التعريفات السابقة، ويقدم هو تعريفه الخاص، وفعل عبد القادر بن عبد العزيز نفس الأمر حين بدأ يعرف الكفر بتعريفات جديدة متجاوزة لتعريفات القدامى والسابقين، انظر: ابن عبد العزيز، دليل الحركات الإسلامية في العالم: ٣٤٥.

(٢) القراءة الإحيائية لا تكون في مواجهة الأمة، ولكن تكون في صفها، فحين يأتي واحد ليقول: الناس جميعًا كفار ونحن المسلمون، لا يمكن أن يكون ما يقدمه إحياء، فالأمة لا تجتمع على ضلالة؛ وفكرة الجماعة والجمهور والعامة وأهل السنة والجماعة دالة في هذا السياق.

ودار الكفر مقصودة جميعها بالحرب والقتال؛ لأن حكوماتها تعادي الإسلام بشن الحرب عليه وبدعم الأنظمة المرتدة التي تحكم بلاده؛ فهناك حرب صليبية، والحرب لا تستثني أحدًا؛ فالحرب هي الحرب[1].

تلك في تقديرنا هي المصادر المعرفية التي تقود إلى السلوك العنيف (الإرهابي).

(١) السلفيون الجهاديون يذهبون لذلك، وهم يستحلون دماء السياح والمستأمنين الذين يدخلون دار الإسلام، ويستحلون أموال ودماء الكفار في ديارهم، انظر الرد عليهم في: القرضاوي، فقه الجهاد: ١٠٣٤.

المبحث الثالث

العنف بتأويل ديني.. المصادر الذاتية

ونقصد هنا بالمصادر الذاتية للعنف بتأويل ديني الميل نحو العنف، وتكمن في السمات الذاتية والشخصية والإدراكية للفاعل الذي يتجه إلى الفعل الإرهابي العنيف. ويمكن أن نورد عددًا من تلك المصادر المتمثلة في الآتي:

أ- تشير الموسوعة البريطانية إلى أسباب سيكولوجية متصلة بالشخص الذي يقوم بالعمل العنيف؛ فهو ينضم إلى الحركة أو التنظيم الذي يمارس العمل العنيف؛ لأن الجماعة التقليدية التي ينتمي إليها لم تحقق له الإشباع والرضا المتصل بالهوية[١].

ب- تنظيمات العنف قد تمثل جذبًا باعتبار ما تدعو إليه من أفكار تبدو جديدة للمنضمين إليها، كما أنها قد تحقق الهيبة وتأكيد الذات عن طريق مخالفة ما هو شائع. ورغم المخاطر المرتبطة بالانضمام إليها فإن الشخص قد يقامر بالانضمام إليها[٢].

ت- شعور الإنسان بالاغتراب وفقدان الأمل والتهميش وأيضًا شعوره بالإحباط وخيبة الأمل هي مجموعة من الأسباب التي تقود إلى احتمال انضمامه لتنظيمات قد تسلك مسلكا عنيفًا.

ث- يمكننا هنا استدعاء نظرية الحرمان النسبي Relative deprivation، التي تقود إلى العنف؛ فالعجز عن تحقيق الإشباع الكافي من القيم التي يرى الإنسان أنه جدير بها؛ بحيث تكون هناك

---

(١) Ralph H. Turner, Neil J. Smelser, Lewis M. Killian, eds., "The Causes of Social Movements: Psychological Factors", under "Social Movement", *Encyclopedia Britannica*, http://www.britannica.com/topic/social-movement.

(٢) المرجع السابق.

فجوة بين ما هو قائم فعلاً وما يجب أن يكون؛ وهو ما يعرف بفجوة التوقعات التي تقود إلى نوع من الغضب الذي قد يتحول إلى العنف[١].

ج- الشباب وسؤال الهوية[٢]، فالشباب من سن ١٨ إلى٢٠ سنة هم من أكثر الفئات شديدة الحساسية تجاه الصورة عن الذات وتجاه سؤال الهوية ومن نكون؟ ويثار هنا السياق الاجتماعي الذي يطرح فيه خطاب الهوية. وتشير الدراسات إلى أن مرحلة المراهقة المتأخرة وبدايات الدخول في مرحلة الشباب هي المرحلة العمرية النموذجية التي يطرح فيها سؤال الهوية. وفي الحالة المصرية فإن سؤال الهوية أُجرِي طرحه بقوة بعد هزيمة ١٩٦٧م، كما أُجري طرحه بعد اتفاقية السلام المصرية – الإسرائيلية، وظل مطروحًا بقوة مع العنف الصهيوني ضد الفلسطينيين، وأحد الأسباب التي قادت إلى عنف تنظيم التوحيد والجهاد في سيناء خاصة عملية طابا الأولى عام ٢٠٠٤م، والتي كانت نوعًا من الثأر للفلسطينيين وما يتعرضون له في الأرض المحتلة بعد الانتفاضة الفلسطينية الثانية عام ٢٠٠٠م وظلت مستمرة حتى عام ٢٠٠٥م. ويمكن الحديث عن صعود الهوية السلفية الجهادية كتعبير عن رد فعل مقاوم اتخذ شكلاً عنيفًا في مواجهة ما اعتبره أولئك الشباب حملة صليبية جديدة على العالم الإسلامي؛ وتنظيم التوحيد والجهاد في سيناء لم يتحرك إلا بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، وتسمى باسم تنظيم التوحيد والجهاد الذي أسسه أبو مصعب الزرقاوي قبل أن يعلن مبايعته لتنظيم القاعدة عام ٢٠٠٤م.

ح- الميل النفسي للتشدد والغلو، فهناك شخصيات تميل إلى الغلو والتشدد، خاصة في فترة الشباب فتحمل نفسها ما لا تطيق، ولا تكتفي بذلك، بل تسعى إلى أن تحمل الناس على ذلك، فتنفرهم من الدين؛ هنا لدينا نفسية ذات طابع متشدد تنحو عادة نحو التطرف[٣].

---

(١) Ted Robert Gurr, "Why Men Rebel", *Commentary Magazine* 50110 (1975): 729- online e-article, https://www.commentarymagazine.com/articles/why-men-rebel-by-ted-robert-gurr.

(٢) Erving Goffman, *The Presentation of Self in Everyday Life* (New York: Doubleday 1959): 45-50.

(٣) القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف.

خ- التعصب الذي لا يتقبل الرأي الآخر، ولا يعرف أن هناك وجوهًا في الفقه متعددة؛ وإنما هو يبحث عن رأي واحد فقط يلزم نفسه به ويجبر الناس عليه. فالشخصية المتعصبة هي تعبير عن نوع من التشدد والغلو الذي يفتح الباب للولوج إلى العنف[١].

د- الجهل بالدين وعدم امتلاك أدوات فهمه، فعادة الشباب الحديث لا يكون لديه معرفة بطرق فهم النصوص الشرعية وكيفية التعامل معها، ومن ثم فقد يخرج باستنتاجات بعيدة تمامًا عن مقاصد الشريعة ومآلاتها. فالنصوص بحاجة لأدوات لا يملكها هؤلاء الشباب الذين قد يصلون إلى نتائج خطيرة خاصة فيما يتصل بالنوازل الكبرى؛ مثل كيف يتصرف المسلم حين يحتل الكفار بلدًا مسلمًا آخر، أو كيف يتصرف المسلم تجاه الحكام إن لم يلتزموا بتطبيق الشريعة.

ذ- عدم مراعاة الفروق في القياس؛ فالعديد من الأحكام المعاصرة تجاه المجتمعات استقاها الشباب من فتاوى ومصطلحات قديمة مثل مصطلح وحكم الطائفة الممتنعة؛ فهو مصطلح أطلقه ابن تيمية في سياق معين هو سيطرة التتار على العالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة الإسلامية ببغداد؛ فكيف يمكن أن نأخذ هذا المصطلح ونطبقه اليوم؛ بحيث نقول إن الحكام هم التتار، وإن من معهم لهم نفس حكم معسكر التتار[٢].

ر- تعجل الصدام مع الدولة دون امتلاك أدواته؛ فالحماس قد يدفع الشباب أو الجماعات لمنازلة قوة كبيرة راسخة في القدم والمؤسسات، وهي الدولة دون إدراك بطبيعتها ودون إدراك بالنتائج التي تترتب على تلك المواجهة، وهي الفتنة التي هي أشد من القتل، والحرب الأهلية التي تهدد الوجود الاجتماعي والتحقق الضروري للحياة الإنسانية. ولذا فإن استقراءنا لتحولات مفاهيم الخروج على الحاكم في الخبرة الإسلامية انتهت إلى منع الخروج تغليبًا لاستقرار الجماعة ووحدتها وتحقيق مصالح الناس التي لا تقوم إلا بنظام، بصرف النظر عن طبيعته[٣].

---

(١) هاني الجزار، في أسباب التعصب: نحو رؤية تكاملية، مكتبة الأسرة (د.م.، ٢٠٠٩م).

(٢) جاد الحق علي جاد الحق، «نقض الفريضة الغائبة: فتوى ومناقشة»، مجلة الأزهر (المحرم ١٤١٤هـ).

(٣) حبيب، الحركة الإسلامية من المواجهة إلى المراجعة.

تلك هي بعض المصادر الذاتية التي قد تذهب بالفرد أو الجماعة إلى العنف. وهذه المصادر متصلة بالجانب النفسي والعمري وجانب الخبرات وجانب التمكن من فهم الشريعة.

المبحث الرابع

العنف بتأويل ديني.. المصادر الداخلية

العنف في أحد معانيه الرئيسية هو عدم القدرة على التكيف مع العالم والبيئة التي يعيش فيها الإنسان. فكما يشير معجم لسان العرب: عنف تعني الخرق بالأمر وقلة الرفق به، وهو الشدة والمشقة. والعنيف الذي لا يحسن الركوب وليس له رفق بركوب الخيل. وهو الكراهية فاعتنف الشيء أي كرهه، واعتنف الأرض أي استوخمها وكرهها. وهو الجهل، واعتنفت الأمر اعتنافًا أي أتيته ولم يكن لي به علم، وأكلت طعامًا فاعتنفته أي أنكرته، وطريق معتنف أي غير قاصد، والأصل اعتنفت الشيء إذا أخذته أو أتيته غير حاذق به ولا عالم. وهذه إبل معتنفة إذا كانت في بلد لا يوافقها. وعنفوان كل شيء أوله ويغلب على الإنسان والنبات، والتعنيف هو التوبيخ والتقريع واللوم.

وتشير الدلالة اللغوية لمعنى العنف هنا إلى ما يمكن أن نصفه بالبيئة أو الإطار الذي يتحرك فيه الفعل العنيف. فهو يجمع بين عدم الخبرة والعلم والرفق والشدة والتعسير والتصعيب، وهو العجز عن السياسة أو القيادة في معنى عدم القدرة على ركوب الخيل، وهو الكراهية وعدم التكيف، وهو الجهل، وهو البعد عن القصد والسواء، وهو متصل بالحداثة وصغر السن، وهو لوم وتوبيخ وتقريع.

إذن هناك بيئة للعنف، أو بيئة مساعدة على إنتاج العنف، وفيها تتكون الخمائر الأولى له. وباعتبار أن البحث يتحدث عن مصادر العنف بتأويل ديني في مصر، فإننا نتتبع مصادر العنف في البيئة المصرية. كما نوهنا من قبل، ويمكن الإشارة في هذا السياق إلى مجموعة من تلك الملامح البيئية التي مثلت مصادر للعنف بتأويل ديني في الحالة المصرية؛ وهي:

أ- سقوط الخلافة الإسلامية

سقطت الخلافة الإسلامية بشكل نهائي عام ١٩٢٤م، وهذه هي المرة الثانية التي تتعرض فيها مؤسسة الخلافة للسقوط؛ كانت المرة الأولى عام ٦٥٨هـ-١٢٥٨م على يد التتار، والمرة الثانية على يد كمال أتاتورك في تركيا. ومثل سقوط الخلافة في المرتين تعبيرًا مشحونًا بالرموز والدلالات الثقافية والتاريخية والإنسانية؛ كما أدى هذا السقوط إلى هزة نفسية ضخمة في العالم الإسلامي جعلت الشباب في العالم الإسلامي يحاول إنشاء حركات لمحاولة بعث الخلافة من جديد مدفوعًا بالشعور بالخوف والخطر على أمته[١].

ب- ظهور الدول العلمانية

غالبية الدول التي ظهرت في العالم الإسلامي بعد الاستعمار Post-Colonialism كانت دولاً علمانية تستلهم المرجعية الغربية في السياسة والحكم، وخاصة مبدأ الفصل بين الدين والدولة، وارتبط بذلك نشأة تيار فكري علماني يعتقد أن نهضة العالم الإسلامي مرتبطة بالعودة إلى القيم الغربية ونبذ القيم الإسلامية. وهذا التيار العلماني هو الذي أصبحت له الكفة الراجحة في توجيه شئون بلدان العالم الإسلامي؛ وهو ما أنتج أزمة هوية.

ت- الاستعمار الغربي للعالم الإسلامي

جاء استعمار الدول الغربية للعالم الإسلامي منذ منتصف القرن التاسع عشر، ثم تقسيم العالم الإسلامي عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ليفجر موجة من المقاومة التي اتخذت أشكالاً عنيفة متنوعة؛ كما أن دعم الاستعمار البريطاني خاصة للمشروع الصهيوني

(١) عن الوضع النفسي لمصر والعالم الإسلامي بعد سقوط الخلافة، انظر: محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، ط. ٢، مج. ٢، من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٩٦٨): ٨-٨٠.

في فلسطين فتح الباب على مصراعيه لتأسيس تنظيمات سرية في مصر تستند إلى العنف لمواجهته[1].

ث- ظهور الجماعات الإسلامية الحديثة

ظهرت الجماعات الإسلامية الحديثة كنوع من الحفاظ على الهوية الإسلامية ومحاولة القيام بدور في ملء الفراغ الذي تركته مؤسسة الخلافة؛ فظهرت الجمعية الشرعية وأنصار السنة ثم ظهر الإخوان المسلمون عام ١٩٢٨م، وتحولت إلى حركة سياسية عام ١٩٣٨م، بدت معها كأنها خطر على النظام السياسي والدولة المصرية في الأربعينيات.

ج- انتهاج العنف من جانب التنظيم الخاص

أسس الإخوان تنظيمًا خاصًّا للاستجابة لطبيعة ما يجري في المنطقة؛ خاصة التحدي الصهيوني، بيد أن هذا التنظيم تحول ناحية استخدام العنف في الداخل ضد المسئولين في الدولة المصرية. ويعد ذلك التنظيم هو الحالة الإسلامية الأولى التي تستند إلى استخدام العنف في الداخل؛ ومن ذلك عملية قتل النقراشي، وقتل الخازندار وغيرها من العمليات الأخرى[2].

ح- التناقض بين الدولة والجماعات الإسلامية

بدأت جماعة الإخوان تقرأ الدولة المصرية في سياق ارتباطها بالمشروع الغربي الذي يرى الجماعة خطرًا عليه، ومن ثم السعي للقضاء عليها. ومن هنا تحول عنفها إلى الدولة فتم قتل النقراشي، ثم الخازندار ثم ردت الدولة بقتل حسن البنا مرشد الجماعة والعقل المفكر لها. ومن

(١) منها التنظيم الخاص للإخوان المسلمين الذي تأسس في الأصل لمواجهة اليهود في فلسطين.

(٢) ميتشل، الإخوان المسلمون؛ كمال، النقط فوق الحروف.

هنا بدأ العنف والعنف المضاد، وانفتحت البلاد على أحد المصادر الخطيرة للعنف، وبدأت ظاهرة التعذيب في الظهور خارج سياق القانون، وهذا ما أطلق عليه «لحظات استدعاء العنف».

خ- عسكرة الدولة المصرية

استخدمت الدولة الناصرية أدوات خارج القانون للتخلص من معارضيها، وخاصة الإخوان المسلمين؛ فعرفت السجون المصرية التعذيب وزوار الفجر والاعتقالات العشوائية الواسعة، والأحكام العسكرية بالإعدام في ظل حالة من القوانين الاستثنائية التي استندت لمفهوم الشرعية الثورية وهو ما مثل ميراثًا من بذور الصدام والمواجهة بين الطرفين، بل مع الأجيال الإسلامية التي جاءت من بعدهم، والتي حاولت أن تثأر لما اعتبرته إهانة للرموز الإسلامية. هذا فضلاً عن الأحكام بالإعدام التي صدرت عام ١٩٥٤م ضد قادة الإخوان ومنهم القاضي عبد القادر عودة، وتلك التي صدرت عام ١٩٦٥م ومنهم سيد قطب[١].

د- عسكرة التنظيمات الإسلامية

تفشى وباء العسكرة لدى الدولة والإسلاميين بحيث صار الاحتكام إلى القوة خارج القانون والشرعية هو المنطق السائد؛ فأسس الإسلاميون المتأثرون بفكر سيد قطب تنظيم القطبيين عام ١٩٦٥م، واستند التنظيم إلى فكرة السرية وإلى طرح أفكار وخطط متصلة باستخدام العنف. ويعتبر التنظيم استلهامًا لأفكار سيد قطب، ومحاولة لما اعتبره هؤلاء الشباب استمرارًا للعمل تحت مظلة الإخوان المهددة والمكسورة[٢].

(١) عبد المجيد، الإخوان وعبد الناصر.

(٢) المرجع السابق.

ذ- الصلح والتطبيع مع الكيان الصهيوني

جاء تحول الدولة المصرية في عصر السادات بشكل حاد في سياستها الخارجية نحو الصلح والتطبيع مع الدولة العبرية ليفتح الأبواب على مصاريعها لاستخدام العنف ضد النظام باعتباره نظامًا غير شرعي من الناحية الدينية. ويعد عام ١٩٧٧م هو عام الانكسار في علاقة النظام بالجماعات الإسلامية؛ فاليهود هم الأعداء التاريخيون للإسلاميين ولعموم الحركة الوطنية المصرية، وجاء التحول نحو التطبيع معهم بشكل مفاجئ انعطافة حادة مثلت صدمة للجماهير وللحركات الاجتماعية معًا[١].

ر- الجهاد الأفغاني

جاء الجهاد الأفغاني كجزء من مشروع توافقت عليه أجهزة مخابرات لدول كبيرة لها مصالح استراتيجية في هزيمة الاتحاد السوفيتي في أفغانستان؛ وهو ما فتح الباب واسعًا أمام الشباب المسلم من العالم العربي والإسلامي للاندفاع إلى هناك كمجاهدين. وفي أفغانستان تأسست بنية السلفية الجهادية وتنظيم القاعدة على المستوى الحركي وتكاملت على المستوى الفكري. وارتبط بتلك الظاهرة فيما بعد ما عرف باسم «العائدون من أفغانستان»، الذين اتجهوا إلى مناطق أخرى كالبوسنة والهرسك والشيشان وغيرها من مناطق التماس الصراعي بين الحضارات والأمم. وكانت البدايات الأولى للترويج وفتح الأبواب أمام الشباب المصري للذهاب إلى أفغانستان في عهد الرئيس السادات. وقد تكاملت نتائج تلك السياسة فيما بعد وفتحت الباب واسعًا للتأسيس للعنف، وتأسيس ما نطلق عليه الجيل الأول لجماعات العنف المستندة لتأويل ديني.

(١) رفض مثلًا إسماعيل فهمي وزير الخارجية المصرية الطريقة التي تم بها الإعلان عن زيارة السادات للقدس واستقال. وفي مذكراته يوضح كيف كان تأثير ذلك الإعلان في الحلقة المحيطة به، وأحد الأسباب التي ذكرها الإسلامبولي لقتل السادات كانت مسألة الصلح والتطبيع مع اليهود.

ز- قرارات عنف واسعة تجاه المعارضين

تشير المعلومات إلى أن قرارات التحفظ التي اتخذها الرئيس السادات ضد معارضيه من مختلف الاتجاهات السياسية بالاعتقال وضعت مصر على فوهة بركان، وبدأت التنظيمات التي تتبنى الفكر الجهادي تتحرك في وقت لم يكن لدى الدولة معلومات حقيقية عنها وانتهى تحركها باغتيال الرئيس السادات. فتلك التيارات الجهادية التي تعتقد باستخدام العنف ضد الدولة كانت موجودة بقوة، بيد أن حدث التحفظ مثَّل العامل المفجر لتفعيل حركة تلك التيارات تجاه حدث مقتل السادات[1].

س- الهجوم على الرموز الدينية

أحد الأسباب التي أشار إليها قاتلو السادات في التحقيقات لإقدامهم على اغتياله هو أنه أهان ما اعتبره أولئك رموزًا إسلامية كوصفه لبعض العلماء والخطباء من معارضيه بأنهم «زي الكلاب»، أو وصفه للنقاب بأنه خيمة[2].

(١) جيلز كيبل، النبي والفرعون، ترجمة أحمد خضر (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م): ٢١٢ وما بعدها.

(٢) حسني أبو اليزيد، من قتل السادات، ط. ٥ (القاهرة: الدار المصرية، ١٩٩١م): ١٠٨. حيث عدد الأسباب التي أشار فيها خالد الإسلامبولي لقتل السادات في إجابة مكتوبة عن أسئلة للمؤلف.

المبحث الخامس

العنف بتأويل ديني.. المصادر الخارجية

ونقصد بالمصادر الخارجية هنا التحولات التي عرفتها البيئة الدولية والإقليمية، والتي ساعدت على بزوغ الفعل الإرهابي «العنيف». وإذا كانت البيئة الداخلية هي التي مثلت تحديًا رئيسيًّا لإنتاج الفعل العنيف ذي الطابع الإرهابي حتى مطلع التسعينيات، فإن التحولات التي شهدها العالم والبيئة الدولية مع مطلع العقد الأخير للقرن الماضي قد أصبحت هي التحدي الرئيسي لإنتاج العنف والفعل الإرهابي المستند إلى تأويل ديني حتى اليوم. وفي ظل تلك التحولات نشأ الجيل الثاني للجماعات العنيفة المستندة لتأويل ديني مع الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، والجيل الثالث هو جيل تنظيم «داعش» - الدولة الإسلامية في العراق والشام - وتتمثل تلك التحولات الخارجية في:

أ- نهاية التاريخ وانتصار الغرب

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة وسقوط الأنظمة الاشتراكية في شرق أوروبا وسقوط جدار برلين، ظهرت أفكار فوكوياما عن الانتصار النهائي للحضارة الغربية وقيمها وأفكارها. فهي الحضارة الوحيدة التي ينتهي التاريخ عند أفكارها ونظمها السياسية، وغيرها من الحضارات ليس له قدرة على البقاء. وهنا فإن ذلك كان فاتحة لما يمكن أن نطلق عليه صراع الأفكار والحضارات من منظور التحليل الثقافي. واعتبر الإسلاميون في العالم الإسلامي أن غرور الحضارة الغربية ونفيها للحضارات الأخرى هو نوع من العنف الثقافي الذي أثار نوعًا من التحدي في مواجهة تلك الحضارة التي بدت كأنها هي الحضارة الوحيدة التي ينبغي

أن تلتحق بها الحضارات الأخرى؛ وحين تميل حضارة لإعلان انتصارها النهائي فإنها تستدعي حالة خوف قد تقود إلى العنف من جانب الحضارات الأخرى التي تشعر بالتهديد[١].

ب- صراع الحضارات

«صموئيل هنتنجتون» عالم السياسة الأمريكي الأشهر هو من وضع المصطلح موضع الاهتمام والجدل مسترشدًا في ذلك بأفكار أستاذه المستشرق العجوز «برنارد لويس»، واعتبر أن الحروب القادمة التي يشهدها العالم ستكون حروبًا حضارية، وأن الحدود بين الحضارات ستعمد بالدم، وأن هناك مواجهة ستكون بين العالم الإسلامي والغربي. هنا فإن القوى التي ستحرك التاريخ وتفاعلاته هي قوى حضارية، الدين سيقع في قلبها؛ ومن ثم فإن الإسلام سيكون إحدى القوى الدينية والحضارية البازغة في دوامة تلك الصراعات. كان الغرب يتحدث عن صدامات سياسية أو اقتصادية بيد أن الحديث عن صدام ديني وحضاري فتح الباب على مصراعيه لتنشيط القوى الدينية نحو تأويل يبرر المواجهة والصراع[٢].

ت- اعتبار الإسلام عدوًّا

العودة إلى مفهوم الصدام الحضاري استعادت الجذور التاريخية القديمة ذات الطابع الذي يمكن وصفه بصراع اجتماعي ممتد بين عالم الإسلام وعالم المسيحية، وأن العالمين في دورات من الصعود والهبوط المتبادل لكن يبقى أن الإسلام هو العدو الرئيسي للغرب؛ فهو من يرفض قيم الديمقراطية الغربية، وهو من أنتج صحوة إسلامية عكست تحديًا للحضارة الغربية، والإسلام بعد سقوط الاتحاد السوفيتي العدو المشترك للحضارتين الإسلامية والغربية يبقى هو

(١) فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين (القاهرة: مركز الأهرام، ١٩٩٣م).

(٢) صموئيل هنتنجتون «أحداث ١١ سبتمبر كانت أهم تطبيق لنظريتي «صراع الحضارات»»، العرب نيوز، في حوار لصموئيل هنتنجتون مع مجلة دي تسايت الألمانية أشار إلى أن أحداث سبتمبر هي التطبيق العملي لنظريته عن صراع الحضارات.-http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/27-09-2002/15.htm.

العدو البديل. فالإسلام دين يقدس القتال وأفكار اللاعنف لا توجد به. وهناك عدم قابلية للهضم لدى الحضارة الإسلامية؛ فهي محاذرة من الآخر غير مستعدة لاحتوائه وتقبله[1].

ث- اكتمال الأممية الإسلامية

أشرنا إلى الجهاد في أفغانستان كأحد مصادر العنف الداخلية بالنسبة للحالة المصرية. فالدولة المصرية فتحت أبواب مطاراتها للشباب المصري للهجرة إلى أفغانستان تحت قصف دعوات الوعاظ والدعاة الخائفين من الزحف الأحمر على دول الإسلام مبتدئًا بأفغانستان. وتم دعم تلك القوة الإسلامية الشابة من قبل النظم السياسية الداخلية ومن قبل أجهزة القرار في الغرب وخاصة أمريكا؛ وبدأت أفغانستان تعرف أكبر تجمع أممي من مختلف أنحاء العالم الإسلامي من الشباب الذين عرفوا باسم «المجاهدين العرب»، وهؤلاء في أفغانستان اكتملت رؤاهم الفكرية والسياسية وفي نفس الوقت اكتملت قواهم العسكرية وقد لعبوا دورًا كبيرًا في هزيمة الاتحاد السوفيتي واضطراره إلى الانسحاب من أفغانستان؛ وفي هذه المرحلة بدأ تأسيس ما عرف باسم «السلفية الجهادية» التي أرسى معالمها الشيخ «عبد الله عزام» وهناك التقى «بن لادن» مع تنظيم الجهاد، وبذرت البذور الأولى لتنظيم القاعدة التي ظلت كامنة حتى تم الإعلان فعلاً عن الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبيين في فبراير عام ١٩٩٨م[2].

(١) نبيل شبيب «الإسلام عدو بديل: هدف ثابت وصياغات متغيرة!»إسلام ديلي: رصد ومتابعة الإعلام http://www.islamonline.net/servlet/Satellite?c=ArticleA_C&pagename=Zone-Arabic-News/NWALayout&cid=117062073944.

(٢) كمال حبيب، «سلطان الخوف .. قوة الكابوس التي لن تدوم»، في تحولات الحركة الإسلامية والاستراتيجية الأمريكية (القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٦م): ٢١٧.

ج- ازدواجية المعايير الغربية

عرف العالم الإسلامي والعربي ازدواجية للمعايير التي يستخدمها في السياسة الدولية والمحافل العالمية الدول والساسة الغربيون، فبينما ينحازون إلى جانب اليهود وإلى جانب الإسرائيليين، فإنهم يقفون ضد الإنسان الفلسطيني والعربي. وتاريخ الصراع العربي - الإسرائيلي هو تعبير عن قرارات غربية لصالح اليهود ضد العرب بدءًا من وعد بلفور حتى الموقف المتأرجح من قضية الاستيطان والقدس. وكما أشار هنتنجتون فإن المسألة الفلسطينية والصراع حولها هي تعبير عن صراع حضاري بين عالم الإسلام وعالم الغرب[١]، وتعد مسألة ازدواج المعايير الغربية في التعامل مع تلك القضية أحد أبرز أسباب العنف في العالم العربي.

ح- صعود الأصولية المسيحية في الغرب

عاد الدين ليمثل عاملاً مهمًّا في توجيه السياسات الخارجية الغربية في أمريكا وأوروبا، وصعدت الاتجاهات الأصولية ذات الطابع الإنجيلي متحالفة مع اليمين ذي النزعة الاستعمارية، وهؤلاء جميعًا يدعمون بشكل قوي الدولة العبرية، وهم من أسس لحصار العراق، وعملوا على إعادة تشكيل العالم بما يتوافق والقيم المسيحية وصبغ شرعية دينية على الفعل السياسي الداخلي أو الخارجي، وتبرير الهيمنة والتفوق والتوسع السياسي والاقتصادي[٢].

خ- صعود الأصولية اليهودية

منذ منتصف السبعينيات ونحن أمام ظاهرة تغلب اليمين على الحياة السياسية في إسرائيل، كما أن هناك صعودًا للتيارات الأصولية التي ترى أن التلمود والمصادر التوراتية القديمة صالحة

(١) حواره السابق مع مجلة دي تسايت الألمانية.

(٢) جورج قرم، المسألة الدينية في القرن الواحد والعشرين، ترجمة خليل أحمد خليل (بيروت: الفارابي، ٢٠٠٧م).

للتعامل مع اللحظة الراهنة؛ ومن ثم فإن الدولة العبرية يجب أن تكون يهودية لليهود فقط، وأن العرب يجب أن يبادوا، وأنه لا بد من إقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، وأن العرب أفاعٍ، وأن غير اليهود جنس أقل يجب التخلص منهم. ومن ثم فإن الظواهر المرتبطة بالاستيطان والهجرة ورفض المفاوضات حول قضايا الحل النهائي مثل مسألة عودة اللاجئين أو الحدود حتى قبول الاعتراف للفلسطينيين بحقوق في أرضهم المحتلة، كل ذلك مرتبط بصعود الأصولية اليهودية التي تتحكم اليوم في السياسة الصهيونية[١].

د- أحداث ١١ سبتمبر

جاءت أحداث ١١ سبتمبر التي أعلن تنظيم القاعدة مسئوليته عنها - رغم غموض يكتنف الحادث كبير - لتفتح أبواب الإرهاب والعنف على مصاريعها، ولتؤسس لعلاقة عداء وصدام على الأرض بين العالم الإسلامي والغرب. فصدام الحضارات تحول من الإعلان إلى الفعل، وتمكن المحافظون الجدد من صناعة القرار الأمريكي وبدأوا في شن حرب حقيقية على العالم العربي والإسلامي كانت ضحيتها دولة العراق ثم أفغانستان، وهو ما قاد إلى تورط العالم كله في حرب غائمة على ما أطلق عليه الإرهاب؛ والمقصود به الإسلام والمسلمون والجمعيات والمؤسسات الخيرية الإسلامية؛ وهو ما عرف باسم تجفيف الينابيع الإسلامية على المستوى الدولي، الذي شمل محاولة تغيير الخطاب الديني ومناهج تعليم الإسلام، واعتبار الإسلام دينًا ينتج العنف، ومن ثم تغيير بنيته هو ذاته[٢].

---

(١) عصام مدير، معد، «قس نصراني يعترف بدور «الإنجيل» في الاستعمار والعدوان»، مدونة التنصير فوق صفيح ساخن
https://deedat.wordpress.com/2007/02/08/%D9%82%D8%B3-%D9%86%D8%B5%D8%B1%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%8A%D8%B9%D8%AA%D8%B1%D9%81-%D8%A8%D8%AF%D9%88%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%86-%D8%AC%D9%8A%D9%84-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%B3%D8%AA/
جيل كيبل، ثأر الله: الحركات الأصولية المعاصرة في الديانات الثلاث، ترجمة نصير مروة (د.م.: دار قرطبة، د.ت.).

(٢) كمال حبيب، «البعد العقدي في العلاقة بين الإسلام والغرب»، في تحولات الحركة الإسلامية والاستراتيجية الأمريكية (القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠٠٦م): ١٩٩.

ذ- تحول تنظيم القاعدة إلى شبكة

أدى الفعل العصبي للمحافظين الجدد إلى تنفيذ مخططهم الثوري بإعادة تشكيل العالم وفق مخططاتهم والبدء بالعالم العربي باعتباره المنطقة الأهم لإدخاله في مشروع الشرق الأوسط الكبير ولإعادة هندسة نظمه السياسية ومناهجه وخطابه الديني والثقافي إلى نوع من الفزع والخوف بين شباب العالم العربي والإسلامي؛ وهو ما جعلهم ينضمون لتنظيم القاعدة في العراق وأفغانستان؛ بحيث لم يعد تنظيم القاعدة مجرد تنظيم محدود، ولكنه أصبح شبكة تنتشر تقريبًا على مساحة العالم العربي والإسلامي كله. فانتعش في العراق وتطور حتى أصبح دولة العراق الإسلامية، وانتعش في المغرب العربي بانضمام الجماعة السلفية للدعوة والقتال إليه وأصبح يطلق عليه «تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي»، وانتعش في السعودية واليمن والصومال، كما أن مفهوم الشبكة أصبح يعني تحرك تنظيمات محلية تحت أيديولوجية تنظيم القاعدة العامة كما هو الحال مثلاً بالنسبة لتنظيم التوحيد والجهاد في مصر. ورغم ما بذلته الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب على الإرهاب فإنها فشلت في تحقيق أي من أهدافها؛ ولا تزال تصريحات كبار القادة العسكريين في أمريكا تتحدث عن أن القاعدة لا يزال الخطر الأكبر بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، وحليفة التنظيم طالبان في أفغانستان تمثل أحد أكبر التحديات للاستراتيجية الأمريكية، وتشير تحليلات عديدة إلى أن سياسة المحافظين الجدد تجاه العالم الإسلامي هي التي فتحت الباب واسعًا لانتشار تنظيم القاعدة في العالم الإسلامي[1].

ر- صعود أيديولوجية كراهية الغرب

لماذا يكرهوننا؟ كان أحد الأسئلة التي تم طرحها من جانب العالم الغربي تجاه العالم الإسلامي، وفسر البعض ذلك من منظور الغيرة والحقد على أسلوب العيش وطريقة الحياة والقيم

(١) احتلال أفغانستان وإسقاط نظام طالبان ثم احتلال العراق أنعش تنظيم القاعدة، وجعله ينتشر أكثر في العالم العربي والإسلامي.

التي يتمتع بها الغرب وأمريكا خاصة، في حين كان الحديث في العالم العربي عن السياسات الأمريكية المتحيزة تجاه العالم الإسلامي وعدد القتلى فيه الذين تسببت أمريكا في قتلهم، والدعم الأمريكي لأنظمة مستبدة وغير عادلة. وناقش سياسيون وباحثون غربيون أسئلة الكراهية في العالم الإسلامي للغرب وتساءلوا: ما الخطأ؟ دون أن يدركوا أن عالم الغرب هو الذي زرع تلك الكراهية بشنه حربًا صليبية غير مبررة على العالم الإسلامي ولا يزال[1]. هذه التحولات في البيئة العالمية والدولية أثرت بشكل كبير بما في ذلك العولمة والسموات المفتوحة والاتصال عبر الإنترنت في تهيئة بيئة مواتية ومنتجة لتحولات مقابلة في البنية الفكرية والمؤسسية والحركية للتنظيمات التي تمارس العنف؛ ومن ذلك مثلاً التحول من العدو القريب للبعيد، فصار العالم بإزاء قوتين هما الأباطرة والقراصنة؛ وكلاهما يستخدم العنف المشروع من وجهة نظره.

(١) برنارد لويس، أين الخطأ؟ التأثير الغربي واستجابة المسلمين، ترجمة محمد عناني، تقديم رءوف عباس (القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٩م).

خاتمة

العنف بتأويل ديني هو أحد أهم المخاطر التي يواجهها العالم العربي والإسلامي، ويتم استخدام الدين فيه كمظلة تبرر للمتأولين صرعاتهم التي تعبر عن مشاكل نفسية واجتماعية واقتصادية حتى ميول سيكولوجية فيها جناح أو ميل نحو الإجرام. وفي التاريخ الإسلامي عرفنا حركات اجتماعية لها مطالب متصلة بمظالم اجتماعية واقتصادية وسيكولوجية دخلت تحت مظلة الخوارج لكي تعطي لاحتجاجها معنى، خاصة في المغرب العربي في فترة الحكم الأموي. ومن هنا فإن الحركات التي تستخدم الدين لتبرير عنفها أو تؤوله من منظورها ترتكب جرمًا كبيرًا؛ ذلك أن النص الديني له حرمة وله مقاصد وله منهج لفهمه وفق مراد الوحي. ويقيم الذين يتأولون الدين أنفسهم سلطة فوق النص لتبرير أفعالهم ولو بشكل غير واعٍ. النص له حرمة ومنهج لفهمه لا يجب أن نضع أنفسنا أو تنظيماتنا أو طرائقنا في الفهم سلطة نعبر من خلالها عن مراد الشارع - سبحانه وتعالى -.

ولا شك عندي أن الجماعات المعاصرة التي تتأول الدين لتبرير عنفها تجد أصولها وجذورها عند الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب ﷺ ورفعوا المصاحف على أسنة الرماح، وقالوا «لا حكم إلا لله»، ووصفهم النبي ﷺ بقوله: «تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»، وقال عنهم أيضًا: «حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم»، وقال عنهم: «يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان». ولقد كفروا عليًّا ومعاوية والحكمين والمسلمين جميعًا، وقتلوا الصحابي عبد الله بن الخباب بن الأرت وبقروا بطن امرأته فقتلوها وجنينها وهي متمة، أي قاربت أن تلد. ولما طالبهم علي بن أبي طالب بالقصاص من قاتل عبد الله بن الخباب، امتنعوا عليه وقالوا كلنا قتله. وهذا يعد تمردًا في مواجهة الدولة باعتبار أن جماعة الخوارج تكتلت جميعها وامتنعت على حكم الشرع في تقديم القاتل للقصاص؛ ومن

هنا وجب قتالهم حتى يعودوا إلى الطريق الصواب، ويكفوا عن الامتناع الجماعي المتمرد على حكم الشرع وهيبة الدولة وشرعيتها.

ما أريد توضيحه هو أن المعيار الرئيسي الذي يمكن به أن نصف الجماعة التي تتأول الدين بأنها من الخوارج هو رفعها السيف على الأمة وعلى عامة المسلمين بتأويل ديني كما في حديث النبي ﷺ: «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية؛ ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل، فقتلة جاهلية؛ ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه»، أي إن مجرد رفع السيف على عامة المسلمين وعلى الأمة يجعل من يفعل ذلك خوارجيًّا ولو كان لا يتبنى مناهجهم الفكرية والعقدية، وإن كان استباحة قتال الأمة المسلمة ورفع السيف على عامتها يقود إلى التكفير بالضرورة . لذا فتسمية الجماعات التي تتأول الدين لتبرير عنفها بالسلفية الجهادية ليس صحيحًا؛ لأن عنفها تحت راية عمية وهي تسل سيفها على الأمة وفي مواجهتها وليس من أجل حمايتها أو الدفاع عن حقوقها. فهي ليست سلفية؛ وإنما خوارجية؛ لأنها ترفع السيف على الأمة، وهي ليست جهادية؛ لأن الجهاد لا يكون في مواجهة الأمة لتمزيقها وتقسيمها وتفتيت مكوناتها، أي إن الجماعة التي تتأول الدين وترفع سيفها في مواجهة الأمة والجماعة هي انشقاق في جسد الأمة اليوم موصول بالانشقاق الخوارجي القديم[1].

سنجد «داعش» في سوريا وفي العراق والجماعات التي تسعى لتتواصل معها في مصر وتبايعها كما هو الحال بالنسبة لتنظيم «أنصار بيت المقدس»، الذي أصبح ولاية سيناء بعد بيعته لداعش، ينطبق عليها وصف الخروج على الأمة وليس الخروج من أجلها. فهم يقتلون أهل الإسلام ويسلون سيوفهم على المسلمين، ولم يتوجه أحد منهم بعنفه وقتاله ضد أعداء الأمة. وهم بيادق في يد أعداء الأمة لتجزئتها وتقسيمها من حيث لا يعلمون أو يعلمون ! فهذا الجاهل الغبي المقاتل في صفوف داعش بسيناء يريد أن يجعل منها ولاية ضمن ولايات الخلافة المزعومة التي يتأمر عليها عراقي لا

(١) «عن اعتبار» الجماعات التي تطلق على نفسها السلفية الجهادية بأنها لا سلفية ولا جهادية راجع كمال حبيب، السلفية الجهادية لا سلفيون ولا جهاديون، انظر: «السلفية الجهادية.. لا سلفيون ولا جهاديون»، الشروق، http://www.shorouknews.com/news/view.aspx.

يكاد سوى أن يكون طالب علم، وليست جزءًا لا يتجزأ من تراب مصر؛ فهو يريد أن يقسم التراب الموحد لمصر من أجل وهم مزعوم هو وهم الخلافة الإسلامية. إذا كانت تلك الخلافة ستقسم الموحد وتجزئ المجزأ لتزيده تجزيئًا وتقسيمًا، فهي خلافة فاسدة مصطنعة. فعهدنا بالخلافة أنها توحد ولا تفرق، تحفظ ولا تبدد ، تحمي ولا تضيع؛ فتراب مصر واحد وسيبقى، وأي وهم لتجزئة أي تراب للأمة أو تقسيمه هو عنوان للكذب والاحتيال والضلال[1].

عرفت الحالة العنيفة التي تتأول الدين لتبرير عنفها ثلاثة أجيال، لعبت السياسات الدولية دورًا في توجيهها وتشكيلها؛ فهيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة والمرشحة لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية تقول: «نحن من خلقنا تنظيم القاعدة، فالتنظيم على الأقل في مرحلة التأسيس كان جزءًا من تصور أمريكي هدفه الانفراد بقيادة العالم وتأكيد نهاية التاريخ»؛ كما أشار فوكوياما، وفي مقابلة مع المجلة الفرنسية «نوفيل أوبزرفاتور» قال مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكي كارتر «بريجنسكي»: «كنا نريد أن نعطي الاتحاد السوفيتي حرب فيتنام خاصة به، وحين سألته المطبوعة الفرنسية عن التبعات التي ستلحق بأوروبا وأمريكا والعالم بسبب دعم الأصولية الإسلامية أجاب: ما الذي يُعد أكثر أهمية للتاريخ طالبان أم انهيار الاتحاد السوفيتي، بعض المسلمين الهائجين أم تحرير أوروبا ونهاية الحرب الباردة؟».

الجيل الثاني الذي يمثله أبو مصعب الزرقاوي تأسس مع الاحتلال الأمريكي للعراق؛ حيث انتقل صدام الحضارات من مناطق الحواف وتجاور الحضارات - كما أشار هنتنجتون - إلى قلب الحضارة العربية الإسلامية في بغداد عاصمة العباسيين؛ وهو ما أنتج فزعًا وخوفًا لدى التيارات السلفية الجهادية. وفي ظل المواجهة العاتية مع الأمريكيين وحلفائهم من الشيعة - وفق رؤية تنظيم القاعدة في العراق الذي يقوده الزرقاوي - تأسست الدولة الإسلامية في العراق عام ٢٠٠٦م بقيادة أبي عمر البغدادي، بيد أنه قتل عام ٢٠١٠م، وتم اختيار أبي بكر البغدادي أميرًا للدولة الإسلامية في العراق.

(١) عن معيار وحدة الأمة وتماسكها كمؤشر للحكم على تلك الجماعات بالضلال أو الهدي راجع: كمال حبيب، «تجديد الخطاب الديني والنسق المعرفي للجماعات المتشددة»، مجلة أحوال مصرية، العدد ٥٧ (صيف ٢٠١٥م): ٦٢ وما بعدها.

ومع عسكرة الثورة السورية في أواخر عام ٢٠١١م ونزوح الجماعات الجهادية إلى سوريا وتأسيس جبهة النصرة الممثلة للقاعدة هناك، سعى أبو بكر البغدادي لإعلان الدولة الإسلامية في العراق والشام عام ٢٠١٣م، ومع استيلاء التنظيم على الموصل عام ٢٠١٤م في شهر يونية، أعلن أبو بكر البغدادي نفسه خليفة للمسلمين، وطالب التنظيمات العنفية التي تتأول الدين لتبرير عنفها ببيعته. وفي تسجيل صوتي له قال إن دولته بخير وتتمدد. وفي ظل هذا السياق المضطرب نشأ الجيل الثالث لتيارات العنف التي تتأول الدين لتبرير عنفها، وهذا الجيل هو الأخطر ويعد أعلى مراحل تطور تلك الجماعات العنفية التي تستخدم الدين وتؤوله وتوظفه لصالح الأعمال الوحشية التي تقوم بها[١].

لا يولد الإنسان عنيفًا بطبعه، كما أن الإسلام لا يعرف العنف؛ ولذا فإن ظاهرة العنف المستند إلى تأويل ديني تعكس أزمة في المعرفة لهذه الجماعات، وأزمة في السياق الداخلي للدولة العربية، وأزمة في السياق الدولي والإقليمي، وأزمة فيما يتصل بالسمات الشخصية للأجيال الشابة التي تميل بحساسيتها وحداثة خبرتها ورقة مشاعرها للاستجابة لداعي العنف؛ ولذا فإن مواجهة هذه الظاهرة الاجتماعية السياسية النفسية بحاجة إلى جهود علمية ومعرفية جادة لتأسيس تيار وسطي ينافح عن الفهم الصحيح للقضايا الإشكالية التي تمثل مصادر معرفية لتلك الجماعات؛ فالمعارف جسر إلى ثمارها، وقد تقود إلى التطرف والعنف كما قد تقود إلى الفهم الصحيح للنصوص والأصول والمصادر، كما أن هذه الظاهرة التي تتسع وتمتد وتمثل تهديدًا خطيرًا للحضارة العربية وللوجود العربي والإنساني كله تحتاج إلى دولة عربية جديدة ترسي العدل والحق والخير والجمال، وتحقق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية لمواطنيها. فبدون دولة عادلة تحترم الإنسان وتضع في الاعتبار الإسلام كهوية وكمرجعية، فنحن أمام أزمة احتمال ميلاد جماعات عنف تستند إلى الدين في تأويلها. وحين يعتدل ميزان الإقليم العربي المهدد ويشعر المواطن الذي يعيش فيه أن بلاده تقف على قدم المساواة

(١) عن تلك الأجيال الثلاثة ودور السياسات العالمية في تهيئة البيئة الدولية لصعودها راجع الدراسة الطويلة التي فصلنا فيها حول ذلك الموضوع، كما يمكن مراجعة المراجع الملحقة بتلك الدراسة أيضًا، انظر: كمال حبيب، «انقلاب السحر على الساحر: العنف المسلح من أفغانستان إلى بلاد العرب»، المركز العربي للبحوث والدراسات، http://www.acrseg.org/10026.

لتقرر ما تريد بعيدًا عن إملاءات الغرب وتدخلاته وموازينه الشائلة، فإننا أمام احتمالات كبيرة لمحاصرة تلك الظاهرة الخطيرة التي تهدد اليوم العراق واليمن وليبيا وسوريا ومصر.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية